

أحاديث رمضان ١٤١٥ - قراءات قرآنية - سورة البقرة - الدرس (٠٣ - ٤٩) : الإنفاق .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٢-٠١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

مقام الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح :

أيها الأخوة الكرام ؛ إذا كانت الشمس ساطعة في رابعة النهار ، ونظرت إليها نظرة تأمل ، وفكرت ملياً ، وقلت : إنها ساطعة ، فماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ؟

أردت من هذه المقدمة أن أصل إلى أن الإنسان إذا قال : إن الله موجود ، وإن الدين حق ، ولم يتحرك لعمل صالح يُقر به إليه ، ما فعل شيئاً ، مقامك عند الله بحجم عملك الصالح :

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾

[سورة الأنعام: ١٣٢]

في آيات الإنفاق أربعة معانٍ دقيقة هي :

١ . الإخلاص :

آيات الإنفاق اليوم التي وردت في أواخر البقرة فيها أربعة معانٍ دقيقة ؛ المعنى الأول :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾

الإخلاص :

﴿وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

أحياناً الإنسان في علاقاته المادية ، إن كان موظفاً بدائرة ، يثبت مركزه عند رئيسه بنشاط زائد ، بدوام منضبط ، بإنجاز كثيف ، بهدية يقدمها له أحياناً ، بخدمة خاصة يقدمها ، بإظهار التفاني في العمل ، هدفه يثبت مركزه عند رئيسه ، في تثبيت مركز ، وتقوية مركز ، وبالتعبير العامي : تركيز وضع ، يقول لك : ركز حاله ، أي عمل عملاً تجاه رئيسه ، يجعل مكانته قوية عنده ؛ إما بعمل زائد ، بإخلاص ، بتفان ، بدوام منضبط ، بإنجاز كثيف ، إذاً أليس الأولى أن يثبت الإنسان مركزه عند الله ؟ والآية واضحة جداً :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْبِيهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

[سورة البقرة: ٢٦٥]

هذا المعنى الأول ، المعنى الأول أن الإنسان إذا أنفق بإخلاص يثبت مركزه عند الله ، يقوي مكانته ، والنبي الكريم يقول : " ابتغوا الرفعة عند الله " ، أي لا تبتغوها عند الناس ، الإنسان فان ، والإنسان قد لا ينتبه ، قد لا يكافىء ، أي الإنسان ليس أهلاً لذلك ، قد يكون ليس أهلاً لتمحضه كل إخلاصك ، قد يكون غافلاً عن أعمالك ، قد تكون إمكانيته لا تستوعب أعمالك ، قد ينسى ، قد يتشاغل عنك ، تُصاب بخيبة أمل ، لكن اجعل كل إخلاصك لله عز وجل ، هذا أول معنى .

٢ . أي شيء تنفقه يعلمه الله :

المعنى الثاني :

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٠]

إذا الإنسان قدم هدية ، طبعاً الشيء الأساسي أن يعلم المهدى إليه أنها من فلان ، يضعون بطاقة أحياناً ، يضعون شريطاً أحياناً ، باقة ورد ، مقدمة من فلان ، أي من لوازم الهدية أن يُعلم من تقدم إليه أنها من فلان .

فرينا عز وجل هذه حاجة عند الإنسان ، يا ربي أنا هذا العمل مني ، هذه الحاجة مضمونة :

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٠]

٣ . خير الإنفاق يعود على الإنسان يوم القيامة :

المعنى الثالث :

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٢]

هذا الإنفاق في ظاهره لله ، أما في حقيقته فلك ، سيعود خيره عليك ، إذا الإنسان أطعم لقمة في سبيل الله يراها يوم القيامة كجبل أحد ، لقمة إذا أطعمتها في سبيل الله ، فكيف بما فوق هذه اللقمة؟

٤ . الخير يعود على الإنسان في الدنيا قبل الآخرة :

الشيء الأخير ؛ المعنى الرابع :

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ﴾

في الدنيا .

المعنى الأول : ثبت مركزك بالإتفاق ، المعنى الثاني : أي شيء تتفقه الله يعلمه ، المعنى الثالث : خير الإتفاق يعود عليك يوم القيامة ، والمعنى الرابع : وفي الدنيا وقبل الآخرة ، كل شيء تتفقه يعوضه الله عليك بنص هذه الآية ، وسبع آيات أخر حصراً :

﴿وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٢]

الشيء الخامس :

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٤]

معنى ذلك : ضمنت سلامة الماضي والمستقبل ؛ لا خوف عليهم فيما هم قادمون عليه ، ولا هم يحزنون على شيء تركوه ، هذه أكبر مكافأة .

العمل الذي يتناقض مع الطبع هو الذي يرقى بالإنسان :

النقطة الدقيقة : لما ربنا عز وجل قال :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة آل عمران: ١٣٣]

المتقون كم صفة لهم ؟ مئات الصفات ، آلاف الصفات ، لماذا أغفلها الله كلها وأبقى واحدة ؟ قال :

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة آل عمران: ١٣٣]

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾

[سورة آل عمران: ١٣٤]

الإنسان أحياناً يعمل عملاً متوافقاً مع السنة ، لكن هذا العمل يتوافق مع مصلحته ، يقول لك : الزواج سنة يا أخي ، إذا شيء جميل أن يبحث عن زوجة ، لأن الزواج سنة ، لكن الزواج شيء جديد بالنسبة لك ، شيء ممتع ، أي إذا كان الشيء قد توافق مع طبعك ، لا ترقى به ولو وافق السنة ، أخي لماذا العمل ليس عبادة ؟ العمل ممتع ، إذا أنت لك مكتب ، وتعمل ، وتربح ، وعندك محاسيون ، وأرباحك جيدة ، العمل بحد ذاته ممتع ، أخي العمل أليس عبادة ؟ أحياناً يتوافق عملك مع السنة ، لكن ما الذي يرقى بك ؟ العمل الذي يتناقض مع طبعك ، الإنسان طبعه أن يقبض الأموال ، الإتفاق عكس طبعه ، الآن يرقى ، فالإنسان لا يرقى إلا بالإتفاق ، بالأخذ لا يرقى ، فلذلك : الله عز وجل بدأ بصفات المتقين ، لأنهم ينفقون في السراء والضراء .

الخواطر الإيمانية من قبل الملائكة والخواطر الشيطانية من قبل الشياطين :

كتعقيب على هذه الآيات أحياناً الإنسان تأتيه خواطر تخيفه من الإنفاق ، هذه الخواطر ليعلم علم اليقين أنها من الشيطان ، الدليل :

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾

إذا أنفتتم ، يقول لك : لا تنفق مالك ، احرص عليه ، ولا تكن مجنوناً ، يأتي الإنسان خاطراً أن الإنفاق جنان ، ولا أحد ينفعك إلا قرشك ، وخبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود، هذا كله خواطر شيطانية :

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾

[سورة البقرة: ٢٦٨]

كل الشهوات يدعوك الشيطان إليها ، وكل الأعمال الصالحة ينهك الشيطان عنها ، فكل إنسان تأتيه خواطر من هذا النوع ؛ إما دعوة إلى شهوة ، أو كف عن عمل صالح ، فهذه خواطر شيطانية، الخواطر الإيمانية من قبل الملائكة ، والخواطر الشيطانية من قبل الشياطين ، ومن نوع هذه الخواطر التخويف من الفقر ، والأمر بالفحشاء والمنكر .

محاسبة الإنسان عن كل معصية تخل بتوازن المجتمع :

ما من معصية الله عز وجل توعدها بحرب من الله ورسوله إلا معصية الربا ، لأن الربا ، المال يلد المال ، وإذا ولد المال المال من دون أعمال ، تجمعت الأموال في أيدي قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة ، يختل توازن المجتمع ، يصبح إنسان يملك مليوناً ، ومليون لا يملك واحداً ، إذا اختل توازن المجتمع ، عمت الفوضى ، والثورات ، وأعمال العنف ، ودخل المجتمع البشري في سلسلة من أعمال العنف لا تنتهي ، لأن الأموال ولدت الأموال ، فأصبحت الكتلة النقدية ليست موزعة بين كل الناس ، ليس المال متداولاً بين الناس ، بين فئة قليلة ، وحينما يتداول المال بين فئة قليلة ، وتحرم منه الكثرة الكثيرة ، ممكن أن تفسر كل أعمال العنف في العالم من وراء هذا السبب ، أن الكتلة النقدية - المال - محصورة بأيدي قليلة ، والكثرة الكثيرة محرومة ، فلذلك المعصية التي تؤدي إلى اضطراب المجتمع ، واختلال التوازن ، وإلى خروج الإنسان عن فطرته ، كما يقول الإمام علي: كاد الفقر أن يكون كفراً .

فإذا إنسان أخل بتوازن المجتمع ، فهذه معصية كبيرة جداً ، لذلك الله عز وجل توعده المرابين بحرب من الله ورسوله .

المرأة والرجل متكاملان وكل طرف كامل فيما خلق له :

هناك نقطة يعدها بعض الناس مأخذاً على الدين ، هذا المأخذ أن :

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾

[سورة البقرة: ٢٨٢]

أن المرأة ناقصة ؟ الجواب : لا ، الجواب الدقيق : أنه ما زاد من عقل الرجل ، وقوة إدراكه ، واهتمامه بالقضايا العامة ، وما نقص من انفعاله ، واهتمامه بالقضايا الجزئية ، كمال فيه ، وما زاد من عاطفة المرأة ، واهتمامها بالقضايا الجزئية ، وما نقص من قوة إدراكها ، واهتمامها بالقضايا العامة ، كمال فيها .

فأحياناً يكون النقص كمالاً ، كما نقول : السيارة التي أعدت لنقل البضائع ، إذا نقصت مساحة الركاب ، وزادت مساحة البضاعة ، فهذا كمال في هذه السيارة ، أما الأخرى التي هي معدة لنقل الركاب ، فما زاد في مساحة الركاب ، ونقص في مساحة البضاعة ، كمال فيها ، فالمرأة والرجل متكاملان ، وكل طرف كامل فيما خلق له ، لذلك المرأة أحياناً حياؤها يمنعها أن تدقق ، حياؤها يمنعها أن تدقق في بعض الجرائم ؛ جريمة قتل مثلاً ، جريمة جنسية ، شدة حياؤها ، وخجلها - كما يقولون - تمنعها أن تدقق ، لذلك يجب أن تكون شهادتان مقابل شهادة رجل ، ليس هذا انتقاصاً من مكانتها ، بل هي عند الله عز وجل كالرجل تماماً في التكليف ، والتشريف ، والمسؤولية .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها :

آخر شيء بالآيات :

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

[سورة البقرة: ٢٨٦]

أحب من أخواننا الكرام أن ننتزع من ذهنهم نهائياً أن هذا التكليف فوق طاقتنا ، غض البصر صعب يا أخي ، النساء ، الطرقات ملأى بالنساء ، أين أذهب بعيوني ؟ إليه حينما يأمر ؛ هو الذي خلق الإنسان ، هو الذي يعرف قدراته ، هو الذي يعرف وسعه ، فإياك أن تقول : هذا الأمر فوق طاقتي ، لو أنه فوق طاقتك لما أمرك الله به ، أي أمر ، أداء الصلوات الخمس ، يا أخي خمس صلوات المغرب وقته ضيق ، ما دام الله أمرك بهذا الأمر فهذا الأمر ضمن طاقتك ، فكل خاطر يأتي به الشيطان ، أي يا أخي الأمور معقدة بالإسلام ، الصلوات كثيرة ، وغض البصر صعب ، لا :

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

[سورة البقرة: ٢٨٦]

الوسع لا تحدده أنت ، بل يحدده خالق الإنسان - الوسع - وما كلفك إلا ما أنت قادر عليه .

الفرق الكبير بين كسب واكتسب :

الشيء الأخير :

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

[سورة البقرة: ٢٨٦]

الإنسان له الكسب ؟ نعم ، أما الاكتساب فغير الكسب ؛ اكتسب الشيء أي أصبح ملكه ، فأنت إذا أردت أن تعمل صالحاً ، الله يمدك بالقوة ، الله عز وجل يمدك بالقوة ، فلك الأجر والقوة منه ، وإذا أراد ربك إظهار فضله عليك ، خلق الفضل ونسبه إليك ، لكن :

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

[سورة البقرة: ٢٨٦]

لمجرد أن تعمل عملاً صالحاً ، سجل لك ، أما العمل السيئ فاكْتَسَبْتَهُ ؛ ينبغي أن تصر عليه ، وينبغي ألا تتدم ، إذا ندمت لا يسجل ، إن لم تصر عليه لا يسجل ، أما إذا لم تتدم عليه ، وأصررت عليه ، واستخرت به ، وقلت : ماذا فعلت ؟ معنى هذا أنت مصر :

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

[سورة البقرة: ٢٨٦]

فالفرق بين كسب واكتسب فرق دقيق جداً .

محاسبة الله لعباده و رحمته بهم :

والنقطة الدقيقة والأخيرة في هذه السورة :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

هناك مرض ؛ إن ذكرته ، أو أخفيته ، لا بد من أن تحاسب عليه ، رحمة بك ، فالطبيب الأب لا ينتظر أن يكون ابنه ذا لون أصفر ليقول : معه دود ، يأتيه بالدواء ، أي الأب الرحيم لا ينتظر أن يشكو ابنه مرضاً ، هو يلاحظ ، فلذلك :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[سورة البقرة: ١٨٤]

والحمد لله رب العالمين